محاضرات في مادة الفنولوجيا

1. بوزيد طبطوب

المحاضرة رقم 03

الصوتيات في التراث1

درس العرب أصوات لغتهم في مرحلة زمنية مبكرة على يد الخليل وسيبويه، وابن جني وغيرهم، وكانت هذه الدراسة وسيلة لا غاية، فدراسة الخليل خدمة لعلم المعاجم، ودراسة سيبويه خدمة للدراسات الصرفية والنحوية، ثم جاء ابن جني الذي وضع أركان هذا العلم ورفع بنيانه بتأليف كتابه «سر صناعة الإعراب» الذي خصصه لعلم الأصوات، ثم حمل لواءَ هذا العلم القراءُ وعلماءُ التجويد واعتنوا به عناية خاصة، ولم تخرج أقوالهم عما رسمه اللغويون والنحاة الأوائل، فقد سلكوا طريقهم، وترسموا خطاهم وكان هدفُهم خدمةَ كتاب الله، ولم تتعد هذه الأمور إلى مجالات تطبيقية أخرى.

ولما كان الكلام البشري يتألف من جمل، وتتألف الجمل من كلمات، والكلمات من أصوات، فالأصوات هي جوهر اللغة أو المادة الأساسية التي يتشكل منها الكلام، واللبنة الأولى في بنية اللغة، والدراسة العلمية تقتضي البدء بأصغر مكونات هذه البنية؛ لأن دراسة العناصر التكوينية ينبغي أن يكون مقدما على غيره، والتحليل العلمي والمنطقي للغة يقول بأن دراسة الأصوات يخدم المستويات اللغوية الأخرى ويقدم لها المساعدة، إذ يستحيل دراسة علم الصرف دراسة علمية صحيحة دون الاعتماد على الأصوات؛ لأن كثيرًا من قضايا علم الصرف هي من صريح علم الصوت، مثل الإعلال والإبدال والإدغام وغيرها. وعلم الدلالة يمتح من علم الأصوات، ويحتاج إليه لدراسة التبادلات الصوتية في الموضع الواحد. مثل (نضح، نضخ)، (خضم، قضم). وعلم النحو يحتاج إلى علم الأصوات وإلى الصرف، فبعض القضايا النحوية تحتاج إلى علم الأصوات مثل قضايا الممنوع من الصرف، والإعراب التقديري، كذلك يقدم لعلم النحو خدمة جليلة في التفرقة بين الجمل الاستفهامية والجمل الخبرية، وذلك بالاعتماد على ظاهرة التنغيم، أو التلوين الصوتي، وكذلك ظاهرة النبر؛ وخاصة نبر الكلمات، لا الحروف؛ لأن اللغة العربية لغة غير نبرية ولا تنغيمية بخلاف بعض اللغات الأخرى.

**نشأة الدراسات الصوتية العربية في التراث:**

**عند اللغويين:**

كل الدراسات اللغوية العربية ظهرت بعد نزول القرآن الكريم؛ لأنه كتاب العربية الأول الذي تستمد منه علومَها المختلفة، قال غانم قدوري الحمد: "يرتبط ظهور الدرس الصوتي العربي بنشأة الدراسات اللغوية العربية، التي يمكن أن يُؤرخ لبدئها بنزول القرآن الكريم وتدوينه، ثم تلاوته وتعليم قراءته ...وكانت بواكير الدرس الصوتي العربي قد جاءت مختلطة بالدراسات اللغوية والنحوية الأولى، فنجد في مقدمة معجم العين ملاحظات عن أصوات العربية"**[[1]](#footnote-2)**، فقد قام الخليل بن أحمد الفراهيدي بترتيب أصوات العربية ترتيبا جديدا مخالفا للترتيبين السابقين (الأبجدي والألفبائي)، وترتيبه يستند على أساس واضح ومحدد، وهو ترتيب الحروف بحسب مواضع نطقها في آلة النطق. وهذا الترتيب له منطق بخلاف الترتيبين السابقين، وأقدم مصدر ورد في هذا الترتيب هو مقدمة معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي الذي اتخذ من هذا الترتيب أساسا لترتيب الكلمات فيه، وجاء في مقدمة العين: (وقلب الخليل أ، ب، ت، ث، فوضعها على قدر مخرجها، وهذا تأليف: (ع، ح، ه، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ث، ذ، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ا، ي، همزة).**[[2]](#footnote-3)**

وترتيبه هو وسيلة للصناعة المعجمية، استخدم في ذلك طريقة أسماها تذوق الحروف، حيث أراد بذلك إيجاد وسيلة لإخراج الصوت الساكن الذي يصعب إخراجه بغير الألف.

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175ه) أول من أرسى أساس علم الأصوات عند العرب من خلال مقدمة معجم العين؛ التي ضمت معلومات صوتية ذات قيمة علمية وتاريخية تتعلق بتحليل الأصوات العربية ودراستها دراسة عربية، وبذلك يكون المؤسس لعلم الأصوات النطقي عند العرب،ولم يسبقه إليه أحد، ويتميز بالأصالة. وهو الذي رسم الطريق للعلماء الذي جاؤوا من بعده.

ثم تطورت الدراسة الصوتية بعد الخليل لتصبح أدق تصنيفا وأشمل دراسة لمخارج الحروف وصفاتها، حيث رتَّبَ سيبويه (ت180ه) الحروف في الكتاب ترتيبا صوتيا أيضا، فصنف في عدد الحروف ومخارجها وصفاتها وصنفها إلى أصول وفروع، كما بيّن كيفية حدوث الصوت، خالف ترتيبه الخليل في موضع عدد من الحروف، قال سيبويه: (فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو) **[[3]](#footnote-4)**

وعلى الرغم من اختلاف الباحثين حول معرفة سيبويه بالوترين الصوتيين وأثرهما في المهموس والشديد من الأصوات، فلا يمكن بحال من الأحوال إنكار ما قدمه سيبويه من الأفكار والمبادئ الصوتية خصوصا في كتابه الشهير "الكتاب" وأثر ذلك على تطور الدراسة الصوتية عند العرب أو عند غير العرب.

1. - غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، ص6. [↑](#footnote-ref-2)
2. - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، (1/48). [↑](#footnote-ref-3)
3. - سيبويه، الكتاب، (4/431). [↑](#footnote-ref-4)